فــي صــوتيــات القــرآن

د. خالد مسعود العيسـاوي[❖]

تدرس هذه الورقات شيئاً مما يمكن أن يسمى **(صوتيات القرآن الكريم)** وهو موضوع في تقديري جد مهم، وربما لم يلق حتى الآن الدراسة الكافية والاهتمام الأمثل من دارسي أصوات العربية؛ فمعظم من تعرض للدرس الصوتي العربي في وقتنا هذا، انطلق مما جاء به المحدثون من علماء الأصوات لا سيما علماء الغرب منهم، مغفلا ما تركه لنا عامة علماء العربية الأوائل وعلماء التجويد منهم بخاصة، من ثروة في ميدان الدراسات الصوتية من شأنها أن تكون أرضية صالحة تؤسس عليها دراساتنا الصوتية الحديثة.

ونحن هنا لسنا ندعو البتة إلى نبذ كل ما هو حديث، أو طرح كل ما ورد إلينا من الثقافات الوافدة، إنما نحث الهمم على عدم تجاهل موروثنا الحضاري وتجاوزه إلى غيره، مع أن فيه ما يمكن البناء عليه، بل إن فيه ما يضاهي بعض النظريات الحديثة، ثم إنه لا ضير من الجمع بين ما هو قديم موروث، وما هو جديد وارد، وبذلك تكتمل الفائدة وتتسع دائرة المعرفة.

وكما أسلفت فإن موضوع دراستي سيكون في (صوتيات القرآن الكريم)، وقبل الشروع في هذه الدراسة أود التنبيه إلى شيء أزعم أنه ذو بال، وهو أنني لا أقصد مما سيطرح في هذه الورقات تغيير سنة أو تبديل واقع، وإنما أطرح مشكلة لغوية علها تنتج جدلاً لغوياً من شأنه أن يثري ساحة الفكر ويغذي فينا حب السعي وراء كشف حجب الحقائق المخفية، وسيكون طرحي هذا في نطاق بعض أصوات اللغة التي خالف المحدثون في وصفها وتحديد مخارجها ما نراه عند القدامى، سواء أكان هؤلاء القدامى من النحاة أم كانوا ممن عنوا بالدرس الصوتي ذي العلاقة بالقرآن الكريم والذين عرفوا بين الناس فيما بعد بعلماء التجويد، وذلك بغية تبيين ما قد يترتب على هذا الاختلاف من تباين في طريقة أداء القرآن الكريم (نظرياً)، وأقول (نظرياً) لأن قراءة القرآن سنة متبعة لا يجوز معها الاجتهاد ولا يصح فيها التبديل، وإنما نطرح المسألة ههنا طرحاً نظرياً جدلياً بعيداً عن واقعنا في

❖ جامعة الفاتح – كلية الآداب – طرابلس – ليبيا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التلفظ بأصوات القرآن الكريم، حالنا في ذلك حال النحاة عندما يعرضون لإعراب قراءة ما أو الاحتجاج لها، ثم يردفون ذلك بقولهم: ويجوز في غير القرآن كذا وكذا، دون أن يجوزوا القراءة به، فنحن ههنا نعرض لمسائل صوتية نرى، تبعا لقوانين علم الأصوات، أنه يجوز معها النطق بطريقة أخرى غير المتبعة عند قراءة القرآن الكريم، بيد أننا لا نجوز التلاوة بذلك، وإنما نقول إن ذلك قد يجوز خارج النص القرآني الذي نعلم جميعا أن طريقة تلاوته سنة متبعة لا مجال للاجتهاد والتغيير فيها.

ولكي تتضح الصورة نورد هذا المثال: إن الجيم صوت احتكاكي، أو هو صوت مركب عند المحدثين، شديد انفجاري عند القدامى، وكونه شديداً عند القدامى جعله من أصوات القلقلة، لأن من شروط الصوت المقلقل أن يكون مجهوراً انفجارياً، والسؤال: أفلا يجوز لنا اليوم ونحن نتعاطى جيما احتكاكية، أو لنقل جيما مركبة أن نمنع القلقلة عنها ونجعل منها صوتا غير مقلقل لفقدانها أحد شرطي القلقلة وهو الشدة؟!

هذه هي الفكرة التي يستند عليها هذا البحث، غير أني أعاود القول بأن ذلك وإن جاز فإنما يجوز خارج التلاوة القرآنية التي لا مجال للاجتهاد معها، وإلا أضحت عرضة للتغيير والتبديل كلما عنّ للغة عارض من عوارض التطور الذي لا تسلم منه لغة من اللغات البشرية.

وإذا كانت فكرة البحث قد وضحت في الأذهان وبان الغرض منه، فسنمضي إلى الجزئيات، وسينصب حديثنا على هذه الأصوات الثلاثة:

1- صوت الجيم:

الجيم عند الخليل بن أحمد جارة القاف والكاف في المخرج، فهو يحدد مخرجها بقوله: "وأما مخرج الجيم والقاف والكاف فمن بين عكدة اللسان وبين اللهاة في أقصى الفم"[1]، وهي عند عامة القدامى صوت شديد أي: انفجاري، يقول الداني: "والشديدة ثمانية أحرف يجمعها: (أجدك قطبت)، الهمزة والقاف والكاف والجيم والدال والتاء والطاء والباء"[2].

وكون مخرج الجيم من آخر الفم كما يقول الخليل، إضافة إلى أنها صوت مجهور انفجاري أو شديد -كما نرى عند غالب الصوتيين العرب القدامى- فإن هذا يستلزم في عملية نطقها أمران اثنان:

أ- أن تكون واحدا مما يعرف بالأصوات القمرية، أي من الأصوات التي تظهر معها لام المعرفة، كما هو الحال مع العين والخاء مثلا، ذلك أن لام المعرفة هذه "تدغم في أربعة عشر حرفاً بلا اختلاف في ذلك وهن: التاء والثاء والدال والذال والراء والزاي والسين والشين والصاد والضاد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والطاء والظاء واللام والنون، وعلة إدغام لام التعريف في هذه الحروف أن مخرجها من مخارج هذه الحروف في الفم... ولا تدغم في باقي حروف الفم لتباعدها عن مخرج الفم"[3].

ب- أن تكون أحد أصوات القلقلة الخمسة، وهي القاف والطاء والباء والجيم والدال، فهذه الأصوات إنما قلقلت لتوافرها على شرطين أساسيين هما الشدة والجهر، يقول ابن الحاجب: "وإنما حصل لها ذلك لاتفاق كونها شديدة مجهورة، فالجهر يمنع النفس أن يجري معها والشدة تمنع أن يجري صوتها، فلما اجتمع لها هذان الوصفان... احتاجت إلى التكلف في بيانها، فلذلك يحصل ما يحصل من الضغط للمتكلم عند النطق بها ساكنة حتى تكاد تخرج إلى شبه تحركها لقصد بيانها، إذ لولا ذلك لم تتبين"[4].

إذن فحق الجيم حسب ما حدد الخليل مخرجها وما نراه من وصف القدامى إياها أن تكون صوتاً مقلقلاً ومظهراً مع لام التعريف، وهو ما نسمعه من أفواه مقرئي القرآن الكريم إلى يوم الناس هذا، ولكن ماذا لو نظرنا إلى تلك الجيم التي تدور على ألسنتنا اليوم، والتي هي مخالفة في طبيعتها للجيم الموصوفة في كتب القدامى؟ ألا يجوز أن نغير طريقتنا في التعامل معها بسبب تغير مخرجها وزوال الشدة عنها؟ فلننظر قبلا كيف يصف لنا العلم الحديث هذه الجيم التي ننطق اليوم.

الجيم عند المحدثين من علماء الأصوات صوت يخرج من وسط اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى، فهي جارة الياء والشين في المخرج وليست جارة القاف والكاف كما قال الخليل، وهي كذلك صوت احتكاكي أو شبه احتكاكي وليست بالصوت الشديد كما رأينا عند الداني، يقول الدكتور تمام حسان واصفا الجيم ومخرجها: "ويمكن وصف هذا الصوت بأنه غاري مركب مجهور مرقق، يتم النطق به بأن يرتفع مقدم اللسان في اتجاه الغار حتى يتصل به محتجزا وراءه الهواء الخارج من الرئتين، ثم بدل أن ينفصل عنه فجأة كما في نطق الأصوات الشديدة، يتم هذا الانفصال ببطء، فيعطي الفرصة لهواء الرئتين بعد الانفجار أن يحتك بالعضوين المتباعدين"[5]، ويقول الدكتور إبراهيم أنيس: الجيم صوت "يتكون بأن يندفع الهواء إلى الحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين، ثم يتخذ مجراه في الحلق والفم حتى يصل إلى المخرج، وهو عند التقاء وسط اللسان بوسط الحنك الأعلى التقاء يكاد ينحبس معه مجرى الهواء، فإذا انفصل العضوان انفصالاً بطيئاً سمع صوت يكاد يكون انفجارياً هو الجيم"[6]، وهو عند الدكتور كمال بشر: "صوت لثوي حنكي (مركب - انفجاري احتكاكي) مجهور"[7].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إذن فنحن اليوم -حسب ما قد يتراءى من النظرة الأولى- أمام جيم غير تلك التي كانت سائدة قديماً والتي نرى وصفها في كتب القدامى، أما الجيم التي تتماشى مع وصف الخليل وغيره من المتقدمين فإنها -عند بعضهم كالدكتور أنيس- تقترب شيئاً كثيراً مما يعرف اليوم بالجيم القاهرية إن لم تكن هي هي، فالجيم القاهرية صوت يخرج من عكدة اللسان كما قال الخليل، وهو صوت شديد كما بين الداني من علماء التجويد، أما كيف تطورت هذه الجيم من جيم مؤاخية للكاف والقاف في المخرج إلى جيم تتخذ من ذات مخرج الياء والشين مخرجاً لها فللدكتور إبراهيم أنيس في هذه المسألة رأي جيد لعله يكون من المفيد الإشارة إليه بعجالة.

يقول الدكتور أنيس: إن العرب كانت تنطق بالجيم اللهوية الشديدة الخالية من التعطيش، ثم إن هذه الجيم تطورت بسبب ملازمتها –تقريباً- للأصوات المرققة ولأصوات اللين الأمامية، إلى الجيم المعطشة التي ننطق اليوم، وهو أمر معروف في اللغات الأوروبية، إذ تطور صوت الـ(G) الإغريقي من صوت غير معطش إلى صوت معطش يخرج من شجر الفم، بسبب اقترانه بأصوات اللين الأمامية، فإذا ما قسنا صوت الجيم العربي على صوت الـ(G) الإغريقي طاب لنا الحكم بأن الجيم اللهوية غير المعطشة هي الأصل عند العرب، وأن جيم اليوم ما هي إلاّ صورة متطورة للنطق العربي القديم، "وعليه، فلسنا ندهش حين تتطور -أي الجيم- من صوت خال من التعطيش إلى صوت معطش، لأن الحركة الأمامية قد جذبتها إلى الأمام، وأصبح مخرجها أقرب إلى وسط الحنك، بعد أن كان أقصى الفم"[8].

هكذا حصل التطور لهذا الصوت، وإذا ما سلمنا به، فلقائل أن يقول: يجب علينا أن نتعامل معه بهيئته الجديدة المستعملة، لا بصورته القديمة التي نستها الشفاه، وعليه تُطرح هذه التساؤلات:

1 - ألاّ يجوز لنا ونحن نتعامل مع الجيم اليوم أن ندغم لام التعريف فيها، لتلحق الجيم بما يعرف بالأصوات الشمسية بدل انضمامها إلى الأصوات القمرية، فنقول مثلاً: (اجّمل) بدلاً من (الجمل)، خاصة وأننا رأينا من علماء التجويد من يعلل إظهار لام التعريف مع الأصوات القمرية ببعد المخرج، وإدغامها مع الأصوات الشمسية بقرب المخرج، فهذه الجيم التي ننطق اليوم تخرج من وسط اللسان مع ما يحاذيه من الحنك الأعلى، فمن حقها إذن أن تدغم فيها لام التعريف؟.

2 - أليس من اللازم علينا أن ننزع عن الجيم صفة القلقلة؛ إذ قد تقرر عندنا أنها صوت رخو احتكاكي أو شبيه بالاحتكاكي، وأن الصوت المقلقل ينبغي أن يكون شديدا خالص الشدة؟.

هذه أسئلة قد تقفز إلى الذهن بعد نظرة عجلى لما قاله القدامى والمحدثون عن هذا الصوت، بيد أن نظرة أخرى متأنية قد يكون من شأنها أن تكشف اللبس الحاصل بسبب ازدواجية النظرة إلى هذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصوت، خاصة فيما يتعلق بصفة الشدة والرخاوة، ففي صفة الشدة هذه وجهة نظر يطيب لنا عرضها هنا، فالأمر حسب اعتقادنا ذو علاقة وطيدة بمفهوم مصطلح الشدة أو الانفجار عند القدامى والمحدثين، وحتى نحكم على وصف القدامى الجيمَ بالصحة أو بالخطأ يجدر بنا قبل كل شيء التعرف على معنى الشدة عندهم وعند المحدثين.

يقول مكي بن أبي طالب من علماء التجويد: "ومعنى الحرف الشديد: أنه حرف اشتد لزومه لموضعه وقوي فيه، حتى منع الصوت أن يجري معه عند اللفظ به"[9]، ويعرف ابن جني من علماء اللغة الصوت الشديد بأنه: "الذي يمنع الصوت من أن يجري فيه"[10]، ويقول الدكتور عبد الحميد الأصيبعي من المحدثين: يحدث الصوت الشديد من خلال "إحداث قفل تام في مجرى الهواء باعتراض عضو أو أكثر من أعضاء النطق لتيار الهواء، ثم تسريح الهواء فجأة"[11].

وإذا ما قارنا بين قول القدامى والمحدثين وجدنا أن هناك فرقاً في تحديد معنى الشدة أو الانفجار، فالقدامى يضعون معياراً واحداً ليس إلاّ للصوت الشديد وهو انحباس الهواء معه كما قال ابن جني، أو اشتداد لزومه لموضعه كما عبر عن ذلك مكي، أما المحدثون من علماء الأصوات فإنهم يضيفون شرطاً آخر في الصوت الانفجاري وهو عنصر المفاجأة، أي أن عضوي النطق بعد التصاقهما عند تعاطي الصوت الانفجاري لفترة ما، يحدث معهما انفجار شديد أو لنقل إنهما ينفصلان بشكل مفاجئ ما يسبب حدوث صوت شبيه بالانفجار، وعنصر المفاجأة هذا ليس موجوداً مع الجيم، ومن هنا نقول: إن أحداً من القدامى أو المحدثين لم يخطئ في وصف الجيم بالشدة أو الرخاوة، فالقدامى وصفوها بالشدة ناظرين إلى ذلك الالتصاق المحكم الذي يحدث عند التلفظ بها ولذلك قلقلوها، والمحدثون نعتوها بالرخاوة لأن عنصر المفاجأة ليس موجودا معها، ومع ذلك قلقلوها هم أيضاً ولكن اتباعا منهم لسنة القراءة، فإذا ما احتج محتج بكون الجيم صوتاً غير انفجاري ورام منع القلقلة عنه لم نوافقه لئلا نخرج على ما هو منقول بالتواتر، غير أننا نقره على ما يقول خارج النص القرآني، وعليه فلعله من الخطأ أن نحكم بعدم صواب رأي القدامى فيما يتعلق بقلقلة الجيم متناسين أن لكل فريق معاييره، فالجيم حسب معيار القدامي صوت شديد وهو صواب، وحسب معيار المحدثين صوت احتكاكي ولا خطأ في ذلك.

تبقى مسألة أخرى وهي معاملة الجيم معاملة الأصوات التي تدغم فيها لام التعريف، وهذا أمر في نظرنا غض عنه القدامى الطرف ولم يدلوا فيه بدلو، ولنا فيه وجهة نظر يطيب لنا سوقها، فالخليل بن أحمد وصف لنا مخرجين للجيم، الأول من آخر اللسان مع القاف والكاف كما سبق ورأينا، والآخر مع الشين والضاد، وذلك حين يقول: "والجيم والشين والضاد شجرية؛ لأن مبدأها من شجر الفم"[12]،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا يجعلنا نوشك أن نقول إن مخرج الجيم في عهد الخليل كان يشهد تطوراً بتحوله من أقصى اللسان إلى وسطه، ثم إن العرب غلب عليهم النطق الجديد للجيم بإخراجه من وسط اللسان بدل إخراجه من آخره[13]، بيد أنهم نسوا أو تناسوا ما يترتب على هذا التحول من جعل الجيم صوتاً شمسياً لا قمرياً، فظلوا يظهرون لام التعريف معه، خاصة وأن إظهار الجيم مع لام التعريف ليس يشكل صعوبة على المتكلم، أما متى حدث هذا التطور أو التغير تحديدا فلسنا نملك إلاّ أن نقول: إن الإجابة عن هذا السؤال لا تزال راقدة في رحم الغيب.

وليس يسمح -إذا ما سلمنا بصحة هذا الافتراض- لقارئ أن يدغم لام التعريف في الجيم بدعوى الانسجام مع قوانين علم الأصوت؛ وذلك محافظة منا على سنية القراءة.

وربما كان في المسألة وجهة نظر أخرى تزيل الإشكال الذي نراه فيما يتعلق بمخرج الجيم جملة وتفصيلاً، وهي أن الجيم لم تكن ذات يوم جارة القاف والكاف في المخرج، ولم يتحول مخرجها إلى وسط اللسان؛ إذ كان منذ الأصل هذا مخرجها، وكل ما هنالك أن راوي كتاب (العين) اضطرب وهو يروي لنا ما قاله الخليل عن هذا المخرج، فجعلها –خطأ- مع القاف والكاف، ثم عاد ونسبها إلى مخرجها الصحيح، بيد أنه لم يصلح خطأه السابق فكان هذا الخلط، ولسنا نقدر على رمي الخليل نفسه بهذا الاضطراب، فهو أعلى منزلة من ذلك، ولعل إظهار لام التعريف مع الجيم مع أنها مؤاخية للشين في المخرج كان لهجة لقبيلة ما، ثم كتب لهذه اللهجة الانتشار والاستمرار، فصارت اللهجة المعتمدة عند قراء القرآن الكريم، وإن كانت في ظاهرها مخالفة للأصول التي قررها علم الأصوات.

2 - صوت الضاد:

لاشك أن صوت الضاد قد تطور، بل يكاد يجمع الصوتيون على أن الضاد القديمة لم يعد لها وجود في نطقنا اليوم، وأن العربية لم تعد لغة الضاد كما كانت من قبل، يقول المستشرق براجشتراسر: "فالضاد العتيقة حرف غريب جدا غير موجود حسبما أعرف في لغة من اللغات إلا العربية... ويغـــلب على ظني أن النطق العتيق للضاد لا يوجد الآن عند أحد من العرب"[14]، وإذ ما تقرر لنا صحة ذلك، فلننظر في وصف القدامى ووصف المحدثين الضادَ، ثم لنبحث في كيفية تطوره، وما يجب أن ينتج عن هذا التطور في عملية التلفظ.

يرى القدامى أن الضاد صوت جانبي، أي أنه يخرج من كِسر الفم الأيمن أو الأيسر، وأنه صوت احتكاكي رخو، يقول مكي بن أبي طالب: الضاد تخرج من المخرج الرابع من مخارج الفم، من أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس"[15]، ويقول: "فلابد للقارئ المجود أن يلفظ بالضاد مفخمة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مستعلية مطبقة مستطيلة، فيظهر صوت خروج الريح عند ضغط الهواء حافة اللسان بما يليه من الأضراس عند اللفظ بها"[16]، فصوت خروج الهواء مع الضاد -الذي عبر عنه مكي- يعني أن الضاد صوت احتكاكي رخو، وإلاّ كيف يخرج الهواء معه، ولقد صرح مكي برخاوة الضاد حين قال: "وإذا سكنت الضاد وأتت بعدها تاء، وجب التحفظ ببيان الضاد لئلا تتدغم في التاء لسكونها ورخاوتها وشدة التاء"[17]، كما فعل ذلك الداني وهو يقول: "والمستطيل حرف واحد وهو الضاد، استطالت في الفم لرخاوتها"[18].

أما المحدثون من علماء أصوات العربية فيقررون أن الضاد صوت ينتسب إلى مخرج الدال والتاء والطاء، يقول الأستاذ عبد الحميد الأصيبعي: "أما صوت الضاد فيشبه صوت الطاء في حركة أعضاء النطق عند المخرج وعند الطبق والحلق، ويخالفه في حركة الأعضاء عند الحنجرة، حيث يحدث معه ما يحدث مع صوت الدال الذي يشبه صوت الضاد في حركة الأعضاء عند المخرج كذلك"[19]، وصوت الطاء هذا "يحدث عندما يندفع الهواء بضغط ضعيف فلا يحرك الوترين الصوتيين، وعندما يصل الهواء إلى مؤخرة اللسان يصادف تضييقاً فيما بين الحلق والطبق، بارتفاع مؤخرة اللسان ورجوعها إلى الخلف، وعندما يصـــل إلى مخرج الصوت تنطبق أسلة اللسان على الأسنان العليا واللثة انطباقا محكماً، يعقبه انفجار مفاجئ وسريع"[20].

فالضاد التي ننطق اليوم إذن هي جارة للطاء والتاء والدال في المخرج، غير أنها تخالف الطاء بجهرها، وهو ما عبر عنه الأصيبعي بتباين حركة أعضاء النطق بينها وبين الطاء داخل الحنجرة، كما أنها تخالف التاء في جهرها واستعلائها، أما الدال فتخالفها في الترقيق والاستفال، ذلك أن الدال وإن كانت مجهورة فهي صوت مرقق مستفل، فالفرق بين القدامى والمحدثين جلي في وصف هذا الصوت وتحديد مخرجه، فهو عند القدامى جانبي رخو، وعند المحدثين صوت انفجاري يصدر من أسلة اللسان، فكيف ياترى حدث هذا التطور؟ ثم ما هي النتائج المترتبة عليه عند النطق؟ وهل راعى العرب هذه النتائج أو لا؟.

ترجع العلة في تطور هذا الصوت إلى طبيعته الصعبة وعسر التلفظ به، الأمر الذي أشار إليه القدامى وأكده المحدثون، يقول مكي: "ولا بد من التحفظ بلفظ الضاد حيث وقعت، فهو أمر يقصر فيه أكثر من رأيت من القراء والأئمة... والضاد أصعب الحروف تكلفا في المخرج وأشدها صعوبة على اللافظ"[21]، ويذكر صاحب (**النشر في القراءات العشر**) أن صوت الضاد "ليس في الحروف ما يعسر على اللسان مثله، فإن ألسنة الناس فيه مختلفة وقل من يحسنه، فمنهم من يخرجه ظاء، ومنهم من يمزجه بالذال، ومنهم من يجعله لاما مفخمة، ومنهم من يشمه الزاي، وكل ذلك لا يجوز"[22]، ويقول

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدكتور بشر: نحس بصعوبة بالغة في نطق هذه الضاد، وقلما استطاع واحد منا أن يأتي بنطق مثالي يوائم ما قدمه لها العرب من خواص وسمات"[23].

وما أشار إليه ابن الجزري من صور عدة للتلفظ بالضاد بصورة مشوهة يمكن التمثيل له للتأكيد على صحته، فنطق الضاد كما الظاء أمر يجده السامع في بعض اللهجات المنتمية إلى البداوة خاصة، كما هو الحال في البادية الليبية وغيرها، بل إن هذا النطق له جذوره القديمة، فقد روي أن كثيراً من العرب كان يخلط بين الضاد والظاء، ومن ذلك ما رواه الجاحظ المتوفى سنة 255 للهجرة من أنه "كان رجل بالبصرة له جارية تسمى (ظمياء)، فكان إذا دعاها قال: (يا ضمياء) بالضاد، فقال له ابن المقفع: قل (يا ظمياء)، فناداها (يا ضمياء) فلما غير عليه ابن المقفع مرتين أو ثلاثاً قال:

هي جاريتي أو جاريتك؟!"[24].

وقد وصفت في كتب النحو القديمة هذه الضاد المخالطة صوت الظاء بـــ(الضاد الضعيفة)، وعدت من ضمن الأصوات الفروع غير المستحسنة، يقول ابن يعيش: "والضاد الضعيفة من لغة قوم اعتاصت عليهم فربما أخرجوها ظاء، وذلك أنهم يخرجونها من طرف اللسان وأطراف الثنايا، وربما راموا إخراجها من مخرجها فلم يتأتّ لهم ذلك فخرجت بين الضاد والظاء"[25]، أما مزج الضاد بالذال فلا غرابة فيه؛ إذ لافرق بين الظاء والذال إلا في التفخيم والترقيق، فإذا ما جاز الجنوح بالضاد نحو الظاء، فلا غرابة أن يجنح بها نحو الذال أخت الظاء في المخرج.

ومسألة إشمام الضاد صوت الزاي ليست غريبة على أذن العربي اليوم، فصوت الظاء ينطق في كثير من الأمصار العربية اليوم كما الزاي المفخمة، فيقال في: (ظهر) (زهر)، وتعليلا لهذه الظاهرة نقول: إن الضاد لصعوبتها جنح بها نحو مخرج الظاء، وهو أمر معروف في العربية؛ ذلك أن الضاد الفصيحة القديمة رخوة، قريبة من مخرج الظاء، فالأولى من طرف اللسان، والثانية من حافته، فلما اقتربتا في المخرج، واتحدتا في الجهر والرخاوة، ساغ للعربي أن ينتقل من الضاد الصعبة إلى الظاء السهلة نطقاً، ثم إن هذه الظاء تراجع مخرجها شيئاً قليلاً إلى الوراء لتجد مخرج الزاي المؤاخية لها في الرخاوة، فإذا ما جاز إشمام الظاء صوت الزاي، جاز تبعا لذلك إشمام الضاد الشبيهة بالظاء صوت الزاي.

بقي أمران: الأول هو نطق الضاد كما اللام المفخمة، وما نميل إليه هو أنها لم تنطق لاما مفخمة خالصة إنما كانت خليطا بين الدال واللام المفخمتين، وهو ما ارتآه أحد المستشرقين إذ يقول: "ويغلب على ظني أن النطق العتيق للضاد لا يوجد الآن عند أحد من العرب، غير أن للضاد نطقاً قريباً منه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جداً عند أهل حضرموت، وهو كاللام المطبقة، ويظهر أن الأندلسيين كانوا ينطقون الضاد مثل ذلك، ولذلك استبدلها الأسبان بالــ(LD) في الكلمات العربية المستعارة في لغتهم، مثال ذلك أن كلمة (القاضي) صارت في الإسبانية "Alcalde"[26].

ويبدو لنا أن في ذلك شيئاً كثيراً من الصواب، فهذه الكلمة الإسبانية العربية الأصل، وإن كانت تعني اليوم (رئيس البلدية) فإن من معانيها القديمة (القاضي)، وبذلك تكون الضاد مقابلة للدال واللام المفخمتين وليس للام المفخمة وحدها، وإلا ما الذي يبرر وجود صوت الــ(D) الإسباني.

ولقد تتبعنا في غير ما تأن المعجم الإسباني فوجدنا لهذه الظاهرة عدة أمثلة، ونقول في غير ما تأن لأننا ندرك أن شيئاً من التأني من شأنه أن يسعفنا بكثير من الأمثلة الدالة على ذلك، فمن ذلك هاتان الكلمتان الإسبانيتان ذواتا الأصل العربي: (Aldaba - Aldea)، وهما تعنيان على التوالي: (الضيعة والضبة)، أي: القرية الصغيرة، واليد الحديدية التي توضع على الباب لغرض الطرق، فهاتان الكلمتان تحملان في المدلول الإسباني اليوم ذات المدلول الموضوع لهما في اللغة العربية، ما يدعم أصلهما العربي، أما من الناحية الصوتية فقد جاء الصوتان (LD) عوضاً عن الضاد العربية القديمة، وهو ما يدعم وجهة النظر التي سقناها آنفاً.

أما الأمر الثاني فهو نطق الضاد كالطاء القديمة، أي على الصورة المعهودة اليوم، صوتاً شديداً لا رخواً، وهو موضوعنا هنا، وذلك يتأتى بمنح الضاد القديمة صفة الشدة، وتحويل مخرجها من طرف اللسان إلى وسطه مع ما يحاذيه من أعلى الحنك، أي إلى مخرج التاء والطاء والدال، لتصبح بذلك النظير المفخم لصوت الدال المرقق، وهو نطق ليس بالحديث، وصفه أحد علماء التجويد بالعجب مجهول السبب فقال: "فما اشتهر في زماننا هذا من قراءة الضاد المعجمة مثل الطاء المهملة فهو أمر عجب لا يعرف له سبب" وأضاف قائلاً: "قراءة الضاد المعجمة مثل الطاء المهملة فيه مفاسد: الأول: أنه يلزم إعطاء الشدة للضاد مع أنه رخو، الثاني: أن الاستطالة امتداد الصوت فتفوت حينئذ، الثالث: أن في الضاد تفشيا قليلاً فيفوت أيضاً حينئذ"[27].

ونود أن نشير هنا إلى أن ربط هذا التغير الصوتي بعصر متأخر كعصر ابن الجزري ربط فيه نظر؛ ذلك أن هذا التغير في الضاد القديمة حدث قبل ذلك بكثير، وهو ما سنراه لاحقاً، فقد ذكر الدكتور إبراهيم أنيس ما نصه: "والذي نستطيع تأكيده هنا هو أن الضاد القديمة قد أصابها بعض التطور حتى صارت إلى ما نعهده لها من نطق في مصر (أي بنطقها دالاً مفخمة أو كالطاء القديمة وهو ما يدل عليه باقي السياق) وأن هذا التطور كان قد تم في عهد ابن الجزري، أي في القرن الثامن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الهجري فهو يقول في كتابه التمهيد: إن المصريين وبعض المغاربة ينطقون بالضاد المعجمة طاء مهملة"[28].

وهذا قول مخالف لما جاء على لسان ابن سينا وهو يصف الطريقة التي يتم بها إنتاج هذا الصوت في عصره إذ يقول: "وأما الضاد فإنها تحدث عن حبس تام عندما تتقدم موضع الجيم، وتقع في الجزء الأملس"[29]، فهذه الضاد التي يصف مخرجها ابن سينا هي ذات الضاد المستعملة اليوم، فهو يشير هنا بوضوح إلى شدتها بقوله: "فإنها تحدث عن حبس تام" فهي إذن النظير المفخم لصوت الدال، أو ما يماثل صوت الطاء القديمة، ما يؤكد وجودها منذ عصر ابن سينا المتوفى سنة 428 للهجرة، وأنها لم تظهر في القرن الثامن الهجري كما قال الدكتور أنيس.

وختام القول: إن الضاد تحولت من صوت احتكاكي رخو يصدر من أحد جانبي اللسان والأضراس إلى صوت شديد انفجاري مخرجه من مخرج الطاء والتاء والدال بسبب ما يعتريه من صعوبة، فإذا ما ثبت ذلك، فما هي تبعيات هذا التغير الصوتي يا ترى؟!

سنتاول هنا كلمة واحدة واردة في القرآن الكريم لتكون أنموذجا نبين من خلاله كيفية نطق الضاد بالصورة القديمة، وما يمكن أن يؤول إليه النطق ونحن نتعاطى هذه الضاد الشديدة المؤاخية للطاء والدال والتاء في المخرج، وهي كلمة: (اضطر) من قوله تعالى: ﴿**فمن اضطر غيـر باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم**﴾[30].

حسب الوصف القديم للضاد ليست لدينا مشكلة صوتية في التعامل مع هذه الكلمة، فالضاد برخاوتها تسهل علينا الانتقال إلى الطاء بعدها دون عناء ولا مشقة، ولذلك نرى القراء يحافظون على الإتيان بها وترك إدغامها في الطاء، كي لا تضيع رخاوتها مع الإدغام كما يقولون، أما وقد صارت الضاد صوتا انفجاريا فلقائل أن يقول -انطلاقاً من قانون التأثير والتأثر- إنه يجب علينا هنا ونحن نلفظ ضادا شديدة أحد أمرين:

أ - قلقلة الضاد لتلحق بذلك بأصوات القلقلة، ولا ضير في ذلك، فهي صوت يتوافر على شرطي القلقلة حسب نطقه الحديث، فالضاد الحديثة صوت شديد مجهور، ثم إن قلقلتها في هذا الموضع بالذات من شأنه أن يسهل عملية النطق على اللسان، فمن غير السهل الانتقال من صوت انفجاري مطبق إلى آخر انفجاري مطبق مؤاخ له في المخرج دون وجود فاصل بينهما أو حدوث عملية تفاعل بين الصوتين، وصوت القلقلة هو الفاصل بين هذين الصوتين، والذي يقدر على جعل التحول من الضاد الانفجارية إلى الطاء الشديدة أمراً ميسوراً.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقس على الطاء صوت التاء؛ فليس يخفى على أحد صعوبة التحول من الضاد الحديثة إلى التاء المجاورة لها في المخرج، والمماثلة لها في الشدة دون وجود تفاعل بينهما أو فاصل، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿**فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام**﴾[31]، فعدم إدغام الضاد في التاء -مع توافر شروط الإدغام بالاتحاد في المخرج وبعض الصفات- يجعل من عملية النطق أمراً غير سهل إلاّ بقلقلة الضاد، فالقلقلة تولد صُويتاً خفيفاً من شأنه أن يكون فاصلاً بين الصوتين المتجاورين ما يسهل عملية النطق، غير أننا لسنا نجد أثراً لهذه القلقلة في غالب القراءات القرآنية أو لنقل فيها جميعاً مع توافر شرطيها وشدة الحاجة إليها.

ب - انسجام الصوت مع ما قبله وما بعده من الأصوات الملاصقة له بشكل مباشر والمشاركة له في المخرج، وهذا أمر طبيعي، فعلماء التجويد ومعهم علماء الأصوات يقررون أن الأصوات المتجاورة في المخرج متى التقت بشكل مباشر أثر الواحد منها في الآخر، وما نراه في كلمة مثل: **(اضطر)** هو أن أحداً من الصوتين لم يؤثر في الآخر مع عدم الفاصل بينهما، ولعله من الإجحاف بحق الضاد أن نسحبها من مخرجها الأصلي، الذي هو جانب اللسان مع الأضراس، لنقحمها في مخرج الطاء والدال والتاء، ثم نمنعها من التفاعل مع تلك الأصوات، إننا بمثابة من ينزع إنساناً من مجتمعه ليقحمه في مجتمع آخر، ثم يضرب عليه طوقا من العزلة يمنعه من الاختلاط بأفراد المجتمع الجديد الذي يحيا فيه، فإذا ما أردنا تطبيق القوانين الصوتية وجب علينا أن نجعل من الضاد الجديدة صوتاً ذا تأثير وتأثر بغيره من الأصوات المشاركة له في المخرج، فيدغم في غيره ويدغم فيه غيره حسب القوانين الصوتية المعروفة، وإذا ما ذهبنا نراجع هذه القوانين علمنا أن الصوت القوي لا يدغم فيما هو أضعف منه غالبا[32]، فلا تدغم الضاد في الدال لضعف هذه الأخيرة برقتها، في حين أن الدال تدغم فيها كما في قراءة أبي عمرو بن العلاء في قوله تعالى مثلا: ﴿**ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل**﴾[33]، أما الطاء فالأمر معها مختلف، إذ أنها تكاد تساوي الضاد في القوة، فكلاهما صوت مطبق مستعل مفخم شديد وإن كانت الضاد تفوق الطاء بجهرها حسب النطق الحديث للطاء، وهذا يعني ضرورة إدغام الطاء في الضاد فتنطق الكلمة هكذا (اضّــر) أو إدغام الضاد في الطاء فتصير الكلمة هكذا (اطّــر) ما يسهل عمليــة النطق على اللسان.

وهذا النوع من الإدغام جوزته العربية مع الظاء وهي رخوة، وهو مع الضاد يجب أن يكون أكثر جوازا لشدتها، بل إنه أمر جد ملح لتيسير عملية النطق، فتاء (افتعل) من الفعل (ظلم) تتحول طاء لمناسبة الاستعلاء في الظاء قبلها لتصير الكلمة (اظطلم)، ثم إن هذه الظاء مع رخاوتها قد تدغم في الطاء وهو ما يسهل نطقها، فتصير الكلمة (اطّــلم) أو قد تدغم الطاء فيها لتصبح الكلمة (اظــّلم)، أفلا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يكون، قياساً على ذلك، من الملح اللازم إدغام الضاد لشدتها في الطاء فتصير الكلمة (اطر) ما يسهل على اللسان التعامل مع هذا النوع من الكلمات؟!

ومما نراه مجافياً لقوانين علم الأصوات مجيء الدال الساكنة متبوعة بضاد شديدة دون أن تدغم فيها كما في قراءة حفص عن عاصم، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿**ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل**﴾، فالدال أخت الضاد في المخرج، وشريكتها في جل الصفات، ولا فرق بينهما إلا في أن الدال صوت مرقق، في حين أن الضاد نظيره المطبق، ومن هنا صار من المنطقي إدغام الدال في الضاد، خاصة وأن الصوتين قد التقيا بصورة شبه مباشرة، بيد أن هذا لم يحدث، ولكن ربما شفع لعملية الإظهار هنا وجود صويت القلقلة فاصلا بين الدال والضاد.

إن ما حدث تحديداً هو أننا سمحنا لصوت ما بالتطور والتغير، ثم جمدنا أحكامه المترتبة على هذا التطور، وفي رأينا إما أن نسمح بالأمرين كليهما فيحدث الانسجام المطلوب وتتيسر عملية النطق، وإما أن نجمد الأمرين كليهما فيكون لطرائق نطقنا أصواتَ اللغة ما يبرره، كما كان للقدامى مسوغاتهم الصوتية في التعامل مع ألفاظ اللغة، وأعاود القول: إن هذا طرح صوتي خالص، ومسألة الجواز وعدمه تظل أمراً ليس لنا الخوض فيه لكون القراءة سنة متبعة لا مجال للاجتهاد فيها، اللهم إلا إذا أردنا تطبيق ذلك خارج النص القرآني المقدس.

وقبل الانسلال من موضوع الضاد هذا يطيب لنا أن نعرض شيئا عنّ لنا ونحن بصدد كتابة هذه السطور، ذلك أن المتأمل في وصف ابن سينا صوت الضاد بأنه صوت شديد، وفي تعامل ابن محيصن مع هذا الصوت، حيث إنه يدغمه في التاء مثلا، كما في قوله تعالى: ﴿**فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله**﴾، والمتأمل كذلك في وصف غير ابن سينا من القدامى الضاد بأنه صوت رخو، وفي كيفية تعامل غالب القراء معه حيث إنهم لا يدغمونه في الطاء ولا في التاء، ولا يدغمون الدال فيه، نقول: إن المتأمل في كل ذلك ربما كان من حقه أن يزعم أن صوت الضاد كان يشهد تطوراً لا منذ عصر ابن سينا فحسب، وإنما منذ عصر أبي عمرو بن العلاء، وربما قبل ذلك، وأن كلتا الصورتين لنطق الضاد كانت سائدة في عصر القراء السبعة، فمن أخذ بصورة الضاد الرخوة لم يدغمها في التاء ولا الطاء ولم يدغم الدال فيها، وهم غالب القراء، ومن أخذ بهيئة الضاد الشديدة أدغمها في التاء تسهيلا لعملية النطق، لكن تبقى مسألة جد مهمة إذا ما قررنا ذلك، وهي: إذا كان تعامل ابن محيصن مع الضاد بهذه الصورة لأنه يراها شديدة فلم لم يقلقلها وقد توافر فيها شرطا القلقلة؟ ولسنا نرى من سبب لذلك سوى أنه لما قلقلت الدال وهي النظير المرقق للضاد، اكتفى بذلك

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فلم يقلق نظيرها المطبق؛ إذ من غايات القلقلة تمييز الصوت المقلقل من نظيره، فلما ميزت الدال بها لم يحتج إلى الجنوح لها مع صوت الضاد، والله تعالى أعلم.

3 - صوت القاف:

تتمثل نقطة الخلاف بين القدامى والمحدثين في هذا الصوت في كونه مجهوراً عند القدامى مهموسا عند المحدثين، يقول مكي، وهو رأي سائر القدامى: "والقاف حرف متمكن قوي لأنه من الحروف المجهورة الشديدة المستعلية ومن حروف القلقلة"[34]، أما المحدثون فيوافقون القدامى في كل الصفات عدا الجهر؛ إذ أنهم يرون أن القاف "صوت شديد مهموس"[35]، ويذهب علماء الأصوات المحدثين مذاهب شتى في تعليل هذا الاختلاف، وهذه هي جملة آرائهم:

1 - يخطئ بعض الصوتيين المحدثين القدامى في وصفهم القاف بالجهر، يقول الدكتور حسان: "لقد مر بنا أن هذا الصوت من أصوات القلقلة، وأن النحاة والقراء قد أخطأوا في اعتباره مجهوراً"[36].

2 - يرتئي بعض الدارسين أن القدامى لم يصفوا القاف التي نتعاطاها في نطقنا اليوم، بل وصفوا لنا قافا أخرى كانت سائدة في ذلك الوقت، وهي قاف تشبه إلى حد كبير القاف التي نسمعها اليوم عند أهل السودان، وهي قاف مشربة قليلا صوت الغين، وهذه قاف مجهورة حقاً.

وقد تصدى للرد على هذا القول الدكتور غانم قدوري الحمد إذ يقول متحدثا عن محاولة إيجاد تفسير لوصف سيبويه وسائر القدامى لصوت القاف بالجهر: "ويبدو أننا لن نجد ذلك التفسير في نطق القاف غيناً أو قريباً جداً من الغين... لأن من غير المعقول أن يغيب عن نظر علماء العربية وعلماء التجويد ذلك القرب الشديد حينئذ بين نطق القاف ونطق الغين، ولو أن سيبويه حين وصف القاف بأنها صوت مجهور أراد صوتا يشبه الغين، لما وصف القاف بأنها صوت شديد، فمن غير المعقول ألا يفطن سيبويه إلى رخاوة ذلك الصوت وهو فعلاً قد وصف الغين وأختها الخاء بأنها أصوات رخوة"[37].

3 - يذهب عدد من دارسي الأصوات اللغوية اليوم إلى أن القدامى وعلى رأسهم سيبويه أردوا من القاف المجهورة ذلك الصوت الذي يقترب كثيراً في نطقنا اليوم مما يسمى بالجيم القاهرية، يقول الدكتور بشر: "إن العرب ربما كانوا يتكلمون عن قاف تختلف عن قافنا الحاضرة. ليس من البعيد أنهم يقصدون بالقاف ذلك الصوت الذي تمكن تسميته "بالجاف" أو ما يشبه الكاف الفارسية... وهو شبيه بالجيم القاهرية أو هو هي من حيث الأثر السمعي"[38]، وقد رُد على هذا الرأي كذلك بأن القاف التي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تحدث عنها القدامى تخرج من نقطة أعمق من نقطة الكاف، وهذا الصوت الذي يسميه المحدثون بالجيم القاهرية هو النظير المجهور لصوت الكاف، أي أنه يخرج من مخرجها، ولو كان هو ذات القاف التي يصفها القدامى لما ميزوا بينه وبين الكاف من حيث المخرج[39].

4 - يرى الأستاذ عبد الحميد الأصيبعي أن القاف التي نعتها القدامى بالجهر هي ذات القاف التي ننطقها اليوم، أي أنها ذات القاف التي يرى المحدثون أنها صوت مهموس، وأن الاختلاف في الوصف راجع إلى الاختلاف في معيار الجهر والهمس عند الفريقين، فالمحدثون اتخذوا من ذبذبة الوترين الصوتيين وعدم ذبذبتهما معيارا في وصف الصوت بالجهر أو الهمس، أما القدامى فإن المعيار عندهم هو زيادة الاعتماد أو الضغط على موقع الجهر مع الصوت المجهور وضعفه مع الصوت المهموس، وسننقل نص الأستاذ الأصيبعي على طوله لأنه يعطي تفسيرا نرتضيه لهذه المسألة، وهذا هو النص:

"أما صوت القاف فيقول عنه أحد الأصواتيين: (كثيرا ما يذهب النحاة الأوروبيون إلى أن في نطق القاف شدة ثانية مصاحبة للشدة الأولى، تحصل بغلق رأس قصبة الرئة)[40]. وهذا النص يفيدنا كثيرا في معرفة لماذا عد سيبويه صوت القاف من الأصوات المجهورة. والمقصود بقصبة الرئة هو القصبة الهوائية، ورأس قصبة الرئة هي الحنجرة التي تتضمن فتحة المزمار (فتحة الحنجرة) وغلق رأس قصبة الرئة يكون بانطباق الوترين الصوتيين انطباقا تاما، من هنا أشبه صوت القاف صوت الهمزة، والفرق بينهما أنه في حالة صوت الهمزة ينطبق الوتران ثم ينفرجان فينطلق الهواء عبر الممر الصوتي إلى خارج الفم دون أي اعتراض آخر، أما في حالة صوت القاف فإن الوترين الصوتيين ينطبقان انطباقا تاما في الوقت الذي تنطبق فيه اللهاة على مؤخرة اللسان، ثم ينفرج الوتران وكذلك اللهاة ومؤخرة اللسان، وهذا ينطبق مع حالة القفل التام لفتحة الحنجرة...، وهذا معنى قول النحاة الأوروبيين (إن في نطق القاف شدة ثانية مصاحبة للشدة الأولى). وهذا ما يفسر تحول القاف إلى همزة في نطق بعض لهجات مصر والشام في العصر الحديث، فإنهم -طبقا لقانون الاقتصاد في الجهد- يكتفون بالشدة الأولى فيسمع القاف حينئذ همزة"، ويضيف الأصيبعي قائلاً: "أما الهمزة والقاف فقد ذكرنا أن سيبويه يعدهما مجهورتين لأنهما يتفقان مع المعيار الذي وضعه للجهر، فإن معيار الجهر عنده هو: (قوة ضغط الهواء، واعتراض الهواء في الموضع الذي يمكن أن يوصف الصوت فيه بأنه مهموس أو مجهور)... وهذا الموضع هو فتحة الحنجرة حيث الوتران الصوتيان، وقد ذكرنا أنه في حالة النطق بصوتي الهمزة والقاف ينطبق الوتران الصوتيان انطباقا تاما ثم ينفرجان، كما أن ضغط

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الهواء يكون قويا، يفسره الانفجار الذي يحدث عندما ينفك الوتران الصوتيان أحدهما من الآخر، لذلك وصفهما بالجهر"[41].

وخلاصة القول إننا أمام أحد احتمالين: إما أن تكون قاف اليوم هي ذات قاف الأمس، وأن الاختلاف في الوصف جاء نتيجة الاختلاف في المعايير، وإما أن تكون القاف قد تطورت من صوت مجهور كما يقول الأقدمون إلى صوت مهموس كما نجد عند المحدثين، أو لنكن متسامحين أكثر فنقول: إن (فونيم) القاف كانت له صورتان: الأولى تمثل القاف المجهورة وهي التي عني بها سيبويه، وأخرى مهموسة أهملها سيبويه وكتب لها من بعد الشيوع والانتشار، وعلى هذا فلقائل أن يقول: إن قلقلة القاف بصورتها التي تنطق بها اليوم خطأ من منظور علم الأصوات والتجويد معاً؛ فالصوت إنما يقلقل متى كان مجهورا وشديدا، وقاف اليوم تخلو من الجهر حسب مقياس المحدثين، وليس من سبيل إلى الخروج من هذا الخطأ إلى بتعاطي قاف خالية من القلقلة لعدم توافرها على شروط القلقلة كاملة.

وهذا القول الأخير قد يكون مقبولا من وجهة نظر صوتية، لكنه مردود من حيث الرواية؛ إذ لسنا نملك أن نغير في أصوات القرآن شيئاً، كما أنه يمكن أن نقول هنا ما قلناه مع صوت الجيم، فالعرب القدامى قلقلوا القاف لتوافرها على شرطي القلقلة من خلال المعايير التي وضعوها؛ إذ إن القاف عندهم صوت مجهور كما بينا، والمحدثون فعلوا ذلك التزاما منهم بالرواية ونزولا عند سنية القراءة، ثم إن لهم الخيار خارج النص القرآني الشريف.

نتائج البحث

لاشك أن البحث فيما وراء غيبات أصوات اللغة العربية أمر فيه شيء من العسر، غير أنه لا يخلو من متعة يحس بها الدارس والقارئ معاً، فالعسر ربما كمن في أن مادة البحث عنصر سمعي والحال أننا نفتقد تلك المادة التي يرتكز عليها بحثنا، والمتعة تكمن في إمكانية التوصل إلى نتائج قد يكون من شأنها التقريب بين وجهات النظر، أو على الأقل فتح أبواب للنقاش والبحث، وإنارة شمعة قد تضيء جزءاً من سبيل البحث لمن رام مواصلة السير فيه، ويروق لنا أن نعرض ما تراءى لنا من نتائج هذا البحث بعد هذه الرحلة القصيرة.

إن محاولة تفسير الاختلاف بين القدامى والمحدثين في وصف بعض أصوات العربية تكون أكثر فائدة متى ما قلبنا النظر في أكثر من نوع من المصادر، ولا شك أن ما روي من القراءات القرآنية يشكل مادة قادرة على فك الكثير من رموز الصوتيات العربية القديمة، ومن خلال هذا كله نحاول عرض أهم النتائج التي استقرأها البحث.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لاشك أن تلاوة الكتاب العزيز سنة متبعة ليس لأحد منا أن يغير فيها قيد أنملة، ولا شك أيضاً أننا لانقدر على رمي من سبقنا بأنهم غيروا صور هذه التلاوة بسبب من الأسباب، لكننا في ذات الوقت نواجه إشكالات في عملية النطق قد يعجز بعضنا عن تفسيرها في ضوء النطق الحديث لأصوات العربية، بيد أننا نقول إن للأمر وجها آخر مناطه تعدد هيئات النطق في القديم، واختلاف المعايير بين القدامي والمحدثين في وصف أصوات العربية، ونزعم أن النظر إلى المشكلة من هذه الزاوية من شأنه أن يكشف لنا الكثير من الحقائق، وهذا بيان ذلك:

إن صوت الجيم لم يتغير من الشدة إلى الرخاوة كما يرى الكثير من الصوتيين، بل إنه ذات الصوت الذي كان يتعاطاه القدامى، وليس هناك من فرق بينهم وبين المحدثين إلاّ في معيار الشدة والرخاوة، حيث يرى أولئك أن المعيار يكمن في شدة الالتحام بين أعضاء النطق ليس إلا ومن هنا قلقلوه، في حين يرى هؤلاء أن الانفصال المفاجئ شرط آخر للصوت الانفجاري، ومع ذلك فقد قلقلوه التزما بسنية القراءة ونزولا عند المروي بالمشافهة، أما كون لام التعريف لا تدغم معه، فلسنا نملك إلا أن نقول إن ذلك مما شذ، وربما جاز القول إن هناك جيما قديمة كانت تنطق من قبل وهي التي جعلها الخليل من مخرج القاف والكاف، ثم إن هذه الجيم اختفت وكتب للأخرى البقاء، مع عدم القول بأصلية هذه وفرعية تلك، فورث العرب من المختفية إظهار لام التعريف معها، كما يمكن الزعم بأن جيما مؤاخية للقاف والكاف في المخرج لم تكن يوما، وأن إظهار لام التعريف مع الجيم أخت الشين في المخرج ما هو إلا لهجة عربية قديمة كتب لها الانتشار والبقاء، خاصة وأن إظهار هذه اللام مع الجيم لا يشكل صعوبة في النطق.

أما مع صوت الضاد ففي الأمر شيء من الاختلاف؛ ذلك أن نطق هذا الصوت أمر كان يصعب على كثير من الناس كما رأينا، ما أدى إلى التحول عنه إلى صورة من صوره التي لم تكن منعدمة من قبل، وقد رأينا ابن سينا يصف هذه الصورة ما يشي بانتشارها بين الناس وإن لم تكن هي الصورة الأصل، ويبدو لنا أن كلتا الصورتين كانتا منتشرتين في النطق، فمن اعتمد صورة الضاد الرخوة لم يدغمها في التاء ولم يدغم الدال فيها، ومن اعتمد صورة الضاد الشديدة أدغمها في غيرها كالتاء وهو ما فعله ابن محيصن، أما مسألة عدم قلقلته الضاد الشديدة فربما لأنه اكتفى بقلقلة الدال النظير المرقق لهذه الضاد، ومن غايات القلقلة التمييز بين الصوت ومشابهه، فلما ميزت الدال بالقلقلة استغنى عن تمييز الضاد بها.

وأخيراً، فإن الأمر مع القاف أكثر وضوحا، فليس هناك من أمر سوى الاختلاف في معيار الصوت الشديد والرخو، فالقاف صوت مجهور حسب رأي القدامى ومعيارهم، لذا فقد قلقلوه، وهو

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مهموس حسب معيار المحدثين وقلقل عندهم محافظة منهم على سنية القراءة، وهذا ينفي فكرة تطور هذا الصوت أو خطأ الأقدمين في وصفه.

وبعد، فإن المسلمين حافظوا على أداء أصوات القرآن الكريم كما هي، وغاية ما هنالك أن القرآن نزل بسبعة أحرف، فكما جازت مع بعض ألفاظ الإمالة مراعاة لقوم يميلون في لغتهم، وجاز الفتح مراعاة لقوم يفتحون في لغتهم، جاز فيه إدغام الضاد في التاء مراعاة لقوم ينطقون الضاد شديدة، وإظهارها مراعاة لقوم يتعاطون في لغتهم ضادا رخوة، ولسنا نملك أن نقول إن هذا أفصح من هذا؛ لأننا لا نقدر أن نقرر أن الفتح أفصح من الإمالة أو العكس، فالقرآن نزل بلغة العرب المتنوعة في أدائها، وقد راعى رب العباد هذا التنوع تسهيلا عليهم ورحمة بهم، فسبحان من يسر على عباده، ورأف بهم... والله وحده ولي التوفيق.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الهوامش

1- العين، الخليل بن أحمد، تح. المخزومي والسامرائي، مطبوعات وزارة الثقافة والإعلام، العراق، 1980، ج 1 ص 52.

2- التحديد في الإتقان والتجويد، أبو عمرو الداني، تح. الدكتور غانم قدوري الحمد، دار عمار، الأردن، 2000، ص 105.

3- الكشف، مكي بن أبي طالب، تح. الدكتور محيي الدين رمضان، دار الرسالة، ط 4، السنة 1987، ج1 ص 141.

4- الإيضاح في شرح المفصل، ابن الحاجب، تح. الدكتور موسى بناي، مطبعة العاني، بغداد، السنة 1983،ج 2 ص 448.

5- مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، دار الثقافة بالدار البيضاء، 1979، ص131-132.

6- الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة الإنجلو مصرية، القاهرة، ط السابعة، 1978 ص77-78.

7- علم اللغة العام - الأصوات للدكتور كمال بشر، دار المعارف، مصر، 1970، ص 161.

8- الأصوات اللغوية 81.

9- الرعاية، مكي بن أبي طالب، تح. الدكتور أحمد حسن فرحات، توزيع دار المكتبة العربية، ص 93.

10- سر صناعة الإعراب، ابن جني، تح. الدكتور حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط الأولى، 1985، ج 1، ص 63.

11- الدراسات الصوتية عند علماء العربية، عبد الحميد الأصيبعي، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا، ط الأولى، 1992، ص 73.

12- العين ج1، ص 58.

13- كل الذين وصفوا مخرج الجيم من علماء التجويد -وجميعهم متأخر عن الخليل- جعلوه من وسط اللسان مع الشين والياء.

14- التطور النحوي للغة العربية، براجشتراسر، تر. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط 2، 1994، ص 18-19.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

15- الرعاية ص 158.

16- المصدر السابق، ص 158-159.

17- المصدر السابق، ص 161، هذا مذهب غالب القراء، لكن ابن محيصن كان يدغم الضاد في التاء كما سيتبين لنا.

18- التحديد في الإتقان والتجويد، ص 108.

19- الدراسات الصوتية عند علماء العربية، ص41.

20- الدراسات الصوتية عند علماء العربية، ص 40.

21- الرعاية ص 158-159.

22- النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، دار الفكر، دمشق، ج 1، ص 219.

23- علم اللغة العام – الأصوات، ص 136.

24- البيان والتبيين، أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ، تح. عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ج 2، ص 211.

25- شرح المفصل، موفق الدين ابن يعيش، عالم الكتب، ج 10، ص 127-128.

26- التطور النحوي للغة العربية، ص 19.

27- بيان جهد المقل، محمد المرعشي، تح. أبو السعود الفخراني، دار وهبة، القاهرة، ط الأولى، 1998، ص 90.

28 - الأصوات اللغوية، ص 49.

29- أسباب حدوث الحروف، ابن سينا، راجعه طه عبد الرؤوف، مكتبة الكليات الأزهرية، 1978، ص 18.

30- الأنعام 145.

31- البقرة 198.

32- أقول غالباً لأن هذا الأمر لم يثبت في كل الأحوال، بل ثبت عكسه أحيانا كما في إدغام الضاد في التاء في قراءة ابن محيصن، في مثل قوله تعالى: **{فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام}** سورة البقرة الآية 198، يقول الدكتور عبد اللطيف محمد الخطيب: "والواضح أن هذه القراءة -أي قراءة إدغام الضاد في التاء- قد رأت في كل ما يميز الضاد القديمة عبئا حائلا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بينها وبين تحقيق الغاية من التخفيف، ومن ثم صارت الاستطالة والرخاوة والإطباق والجهر جميعها خصائص قابلة للفناء فيما تلاها، وبذلك لم يعد قانون إدغام الأنقص في الأزيد هو القانون الفاعل والحاكم على هذه الحالة، إن الأمر لم يعد مشروطا بخصائص الأحرف في ذواتها، ولكن بتحقيق غاية الغايات من الإدغام وهي التخفيف". ضاد العربية في ضوء القراءات القرآنية، الدكتور عبد اللطيف محمود الخطيب، عالم الكتب، القاهرة، ط الأولى، السنة 2001، ص 58-59.

33- الروم 58.

34- الرعاية، ص 145.

35- الأصوات اللغوية، ص 84.

36- مناهج البحث في اللغة، ص 124.

37- الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، غانم قدوري الحمد، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، العراق، ط الأولى، 1986، ص 253.

38- علم اللغة العام – الأصوات، ص 140.

39- انظر: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص 251.

40- نقلاً عن كتاب: دروس في علم أصوات العربية، جان كانتينو، ترجمة صالح القرمادي، ص 107.

41- الدراسات الصوتية عند علماء العربية، ص 66-67.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

1 - أسباب حدوث الحروف لابن سينا، راجعه طه عبد الرؤوف، مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعــة؟ السنة 1978.

2 - الأصوات اللغوية للدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الإنجلومصرية بالقاهرة، الطبعة الرابعة، الــسنة 1971.

3 - الإيضاح في شرح المفصل لابن الحاجب، تحقيق الدكتور موسى بناي، مطبعة العاني ببغــداد، الطبعة ؟ السنة: 1983.

4 - البيان والتبيين لأبي عثمان الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل ببيــروت، الطبعــة والسنة ؟.

5 - بيان جهد المقل للشيخ محمد المرعشي، تحقيق الدكتور أبو السعود أحمد الفخراني، دار وهبــة للنشر بالقاهرة، الطبعة الأولى، السنة 1998.

6 - التحديد في الإتقان والتجويد لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، تحقيق الدكتور غانم قــدوري الحمد، دار عمار بالأردن، الطبعة الأولى، السنة 2000.

7 - التطور النحوي للغة العربية للمستشرق براجشتراسر، ترجمة الدكتور رمضان عبــد التــواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثانية، السنة 1994.

8 - الدراسات الصوتية عند علماء التجويد للدكتور غانم قدوري الحمد، منشورات وزارة الأوقــاف والشؤون الدينية بالعراق الطبعة 1 السنة 1986.

9 - الدراسات الصوتية عند علماء العربية، الأستاذ عبد الحميد عبد الهادي الأصبيعي، منــشورات كلية الدعوة الإسلامية بليبيا، الطبعة الأولى، السنة 1992.

9 - دروس في علم أصوات العربية، جان كانتينو، ترجمة صــالح القرمــادي، مركــز الدراســات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية بتونس سنة 1966.

10 - الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق الدكتور أحمــد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حسن فرحات، توزيع دار المكتبة العربية، البلد والسنة والطبعة؟

11 - سر صناعة الإعراب لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق الدكتور حسن هنـــداوي، دار القلـــم بدمشق، الطبعة الأولى، السنة: 1985.

12 - شرح المفصل لان يعيش، عالم الكتب، الطبعة والسنة ؟.

13 - ضاد العربية في ضوء القراءات القرآنية للدكتور عبد اللطيف محمد الخطيب، عـــالم الكتـــب بالقاهرة، الطبعة الأولى، السنة 1422 للهجرة 2001.

14 - علم اللغة العام - الأصوات للدكتور كمال محمد بشر، دار المعارف بمصر سنة 1970.

15 - العين للخليل بن أحمد، تحقيق الدكتور مهدي المخزومـــي والـــدكتور إبـــراهيم الـــسامرائي، مطبوعات وزارة الثقافة والإعلام بالعراق، الطبعة ؟ السنة: 1980.

16 - الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق الدكتور محيي الدين رمضان، دار الرسالة، الطبعة الرابعة، السنة: 1987.

17 - مناهج البحث في اللغة للدكتور تمام حسان، دار الثقافة بالدار البيضاء، الطبعة ؟ السنة:1979.

18 - النشر في القراءات العشر لابن الجزري، دار الفكر بدمشق، الطبعة والسنة ؟.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com